Necmettin Erbakan Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi, 35, 2013, ss. 29-42.

الجاحظ حياته وآثاره والرواية الأدبية في بلاد الشام من خلال كتاب الحيوان والبيان والتبيين

Mehmet Mesut Ergin
Doç. Dr., Dicle Üniversitesi Edebiyat Fakültesi
Arap Dili ve Edebiyatı Anabilim Dalı Öğretim Üyesi
emesutergin@gmail.com

EL-CÂHİZ HAYATI ESERLERİ VE KİTABU'L-HAYEVÂN VE EL-BEYÂN VE'T-TEBYÎN BAĞLAMINDA BİLÂDU'Ş-ŞÂM'DA EDEBÎ RİVÂYET

Özet: Bu makale, Abbasi döneminin meşhur Arap edebiyatçılarından el-Câhiz'in hayatını ve eserlerini inceleyerek aynı zamanda edebî rivayetlerin toplanması ile halife, emirler ve Şam ehlinin şiir yorumu ve eleştirisindeki etkisini el-Câhiz'in iki önemli eseri Kitâbu'l-Hayevân ve el-Beyân ve't-Tebyîn bağlamında ele almaktadır.

Anahtar Kelimeler: el-Câhiz, Kitâbu'l-Hayevân, el-Beyân ve't-Tebyîn, edebî rivayet, Bilâdu'ş-Şâm.

AL-JAHIZ HIS LIFE, HIS WORKS AND LITERARY NARRATIVE IN BILADU'S-SHAM THROUGH THE KITAB AL-HAYAWAN AND AL-BAYAN WA AL-TABYIN

Summary: Al-Jahiz who is the one of the most important poets in the era of Abbasid. This article deals with his life and works. Additionally collection of literary narrations and poetry reviews and criticism of the the caliphs, princes and inhabitants of Damascus are studied through the kitab al-hayawan and al-bayan wa al-tabyin.

Key Words: Al-Jahiz, Kitab al-Hayawan, al-Bayan wa al-Tabyin, literary narrative, Biladu's-Sham.

الملخص: هذا البحث يتناول عن حياة الجاحظ الأديب المعروف في العهد العباسي ومؤلفاته، علاوة على ذلك جمع بعض الروايات الأدبية وما بقي من أثر الخلفاء والأمراء ومن أهل الشام في تفسير الشعر ونقده، وذلك من خلال كتابيه كتاب الحيوان والبيان والتبيين.

الكلمات المفتاح: الجاحظ، كتاب الحيوان، البيان والتبيين، الرواية الأدبية، بلاد الشام.

تمهيد

يلقي هذا البحث الضوء على صورة عامة لحياة الجاحظ ومؤلفاته. ثانيا: يتطرق إلى جمع بعض الروايات الأدبية وما بقي من أثر الخلفاء والأمراء ومن أهل الشام في تفسير الشعر ونقده.

ورأيت ثمة مظاهر مختلفة؛ وقد كانت –فيما أرى– كما يلي:

1– الوصايا الأدبية.

2– إنشاد الشعر واستنشاده.

3– التمثيل بالشعر.

4– الروايات الموجودة التي تتعلق باهتمام الخلفاء والأمراء من بني أمية بالشعر ومعرفتهم له في كتب الجاحظ.

وخليق بالذكر أنني لم أعثر على عدد كبير من الروايات الأدبية في مصنفات الجاحظ إلا القليل منها. في الحقيقة إن تلك الروايات والأخبار توضح جهود الأمويين وأهل الشام في الرواية الأدبية واهتمامهم بها.

تتراوح هذه الروايات التي تم استخراجها من كتابي كتاب الحيوان والبيان والتبيين بين الخصائص النقدية وأخبار معرفة الخلفاء والأمراء بالشعر واهتمامهم بها.

1– حياته:

أ– اسمه ونسبه:

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي المكنى بأبي عثمان الشهير بالجاحظ لجحوظ عينيه[1].

ب– ولادته:

[1] ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ، 3/ 470؛ ياقوت الحموي الرومي، *معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب*، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، 5/ 2101؛ ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، إشراف: عبد القادر الأرناؤوط، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، دمشق–بيروت، 1988، 3/ 231؛ الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، *سير أعلام النبلاء*، ترتيب واعتناء: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004، 2/ 2941؛ السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، بلا تاريخ، 2/ 219؛ خير الدين الزركلي، *الأعلام قاموس تراجم*، الطبعة التاسعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1990، 5/ 74؛
Ramazan Şeşen, "Câhiz", *DİA*, İstanbul, 1993, VII, 20.

اختلفت المصادر والمراجع في ولادة الجاحظ ولم تحدده بالدقة. وجعل بعض المؤرخين والباحثين ولادة الجاحظ: 150[2]، 159[3]، 160[4]، بين 150 و160[5]، 163[6]. فقد نقل ياقوت الحموي في كتابه إرشاد الأريب أن الجاحظ نفسه قال: "أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة مائة وخمسين وولد هو في آخرها"[7].

نستطيع القول بأن الجاحظ ولد في بداية 150 على الأغلب منطلقا مما قاله عن تاريخ مولده كما ورد في إرشاد الأريب. أما مكان ولادته فهو مدينة البصرة على الأرجح في عهد خلافة المهدي[8].

ج- نشأته ومراحل حياته المختلفة:

نشأ الجاحظ بالبصرة مسقط رأسه، وكان يختلف في بادئ الأمر إلى بعض الكتاتيب مع رفاقه من الصغار، وكانو يتعلمون فيها القراءة وشيئا من علم النحو، والفقه، ووالرياضيات، ويحفظون بعض الآيات من القرآن الكريم إلى جانب ذلك بعض الأشعار[9]. بعد ذلك استمر في تعليمه من خلال الأدباء المسجديين الذين كانوا يجتمعون في المسجد الجامع في البصرة[10] كما أنه تلقى كثيرا من علوم العربية عن أبي عبيدة معمر بن المثنى وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن الأخفش أبي الحسن، وأخذ الكلام عن أبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور. وكان

[2] ياقوت الحموي، *إرشاد الأريب*، 5/ 2101.

C. Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur*, E. J. Brill, Leiden, 1943, I, 158; C. Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur Supplementband*, E.J. Brill, Leiden, 1938, I, 239.

[3] حنا الفاخوري، *الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب القديم*، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، 1986، ص. 551.

[4] عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت، 2006، 2/ 303.

[5] شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الثاني*، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ص. 587؛ طه الحاجري، *الجاحظ حياته وآثاره*، دار المعارف، مصر، 1969، ص. 89؛

Ramazan Şeşen, "Câhiz", *DİA*, VII, 20.

[6] خير الدين الزركلي، *الأعلام*، 5/ 74.

[7] ياقوت الحموي، *إرشاد الأريب*، 5/ 2101.

[8] خير الدين الزركلي، *الأعلام*، 5/ 74؛ أحمد أمين، *ضحى الإسلام*، الطبعة العاشرة، دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ، 1/ 387؛ عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، 2/ 303.

Ramazan Şeşen, "Câhiz", *DİA*, VII, 20; *GALS*, I, 158.

[9] شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، ص. 587.

[10] عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، 2/ 304.

يختلف إلى المِرْبَد[11] وأخذ عن فصحاء العرب اللغة والأشعار[12]. وهكذا تثقف الجاحظ الثقافة العربية من مربد البصرة، ومن علمائها. وتلقى الثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام ومشافهته لحنين بن إسحاق وسلمويه وأمثالهما. وتضلع بالثقافة الفارسية من خلال تصانيف ابن المقفع وأخذه عن أبي عبيدة الذي سبق ذكره. وتوسع في الثقافات جميعها بما كان يقرأ من المصنفات كلها[13].

كان الجاحظ في أول أمره كان يبيع الخبز والسمك بسيحان[14]؛ يدل هذا على أن نشأته بسيطة، وأنه كان بحاجة ماسة إلى اكتساب معاشه. يروى أن والدته كرهت بانكبابه على الدراسة، فطلب الجاحظ منها يوما طعاما، فجاءته بإناء مليء بكراريس أودعها البيت، وقالت له: ليس عندي طعام سوى هذه الكراريس، كانت تريد أن تنبهه إلى التكسب. فذهب إلى الجامع حزينا، ولقيه مُوَيْس بن عمران أحد أصدقائه الأثرياء في الدراسة، فسأله: ما شأنك؟ فتحدث إليه بما قالته أمه، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين دينارا، فأخذها فرحا وسرورا، وذهب إلى السوق واشترى الدقيق، وحمله إلى بيته، وسألته أمه: من أين لك هذا؟ فقال لها: من الكراريس التي قدمتها إليّ[15].

ولم يلمع نجم الجاحظ إلا بعد أن انتقل من البصرة إلى بغداد لما دخلها الخليفة العباسية المأمون راجعا من خراسان سنة 204/ 819. ثم علا نجمه لما اتصل بوزير المعتصم محمد بن عبد الملك الزيات فأصبح من الموسرين. ويبدو أن الجاحظ عمل مدة قليلة في ديوان الرسائل مع إبراهيم بن العباس الصولي في أيام الخليفة المأمون، ولكنه لم يكن معجبا بحياة الديوان فتركها[16].

في ذلك الوقت كان الجاحظ صديقا لابن الزيات الوزير الذي كان عدوا للقاضي أحمد بن أبي دؤاد. فلما قتل الخليفة المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات سنة 233/ 837 وأصبحت لابن أبي دؤاد اليد الطولى في الدولة.

[11] مربد البصرة: (بكسر الميم وفتح الباء) وهو أشهر محال البصرة، وكان يكون سوق الإبل فيه قديما وكانوا يحبسون فيها الإبل ولذلك سمي بالمربد ثم صار محلة عظيمة، وسكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء، ويبعد عن مدينة البصرة ثلاثة أميال. انظر ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، دار صادر، بيروت، 1977، 5/ 97–99؛ ابن دريد، أبو بكر بن محمد الحسن، *جمهرة اللغة*، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1987، 1/ 297.

[12] ياقوت الحموي، *إرشاد الأريب*، 5/ 2101؛ ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، 3/ 471؛ عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، 2/ 304؛ شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، ص. 588.

[13] أحمد أمين، *ضحى الإسلام*، 1/ 387.

[14] سيحان: نهر بالبصرة. ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، 3/ 293.

[15] ياقوت الحموي، *إرشاد الأريب*، 5/ 2101؛ شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، ص. 588.

[16] عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، 2/ 304.

واستقدم الجاحظ مقيَّدا في الأصفاد ثم عفا الخليفة عنه بعد حديث طويل، وأصبح من المقربين إليه. ثم اتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان[17] الذي وزر للمتوكل نحو سنة 240/ 854 ونال حظوة عنده[18].

في هذه الأثناء زار الجاحظ سر من رأى ثم زار دمشق وأنطاكية؛ ولعل ذلك كان في سنة 244/ 858 عندما نقل الخليفة المتوكل العاصمة إلى دمشق ثم عاد فردَّها إلى سر من رأى بعد شهرين، لأن مناخ الشام لم يوافقه. عاد الجاحظ إلى البصرة نهائيا بعد مقتل الوزير الفتح بن خاقان والمتوكل سنة 247/ 861[19].

وكان الجاحظ في أواخر عمره قد أصابه الفالج، وكان يعاني الفالج والنقرس وعاش في الفالج سبع سنوات، وكان يقول في مرضه: "اصطلحت على جسدي الأضداد، إن أكلت باردا أخذ برجلي، وإن أكلت حارا أخذ برأسي. وكان يقول: أنا من جانبي الأيسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبي الأيمن مُنْقَرَس فلو مر به الذباب لألمت، وبي حصاة لا ينسرح لي البول معها، وأشد ما عليّ ست وتسعون سنة"[20]. ولكنه ظل حاضر الذهن قوي الذاكرة قادرا على التأليف[21].

د–وفاته:

اتفقت المصادر على تاريخ وفاته وهو في المحرم من سنة 255/ 868 نتيجة سقوط الجلدات عليه من كتب فمات وعمره نحو ست وتسعين سنة[22].

2– مؤلفاته:

خلف الجاحظ مؤلفات كثيرة ذات أهمية في مجالات شتى. سأورد هذه المؤلفات من خلال التصنيف التالي[23]:

[17] نرى شخصين بهذا الاسم في التاريخ: أحدهما وزير المتوكل الخليفة العباسية الذي نحن بصدده، والثاني الكاتب الأندلسي الشهير صاحب كتاب قلائد العقيان وكتاب مطمح الأنفس.

[18] عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، 2/ 304.

[19] *المصدر نفسه*، 2/ 304.

[20] ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، 3/ 473.

[21] أحمد أمين، *ضحى الإسلام*، 1/ 387؛ عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، 2/ 305.

[22] ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، 3/ 473؛ ابن العماد، *شذرات الذهب*، 3/ 231؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، 2/ 2941؛ السيوطي، *بغية الوعاة*، 2/ 219؛ جرجي زيدان، *تاريخ آداب اللغة العربية*، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1983، 2/ 475 خير الدين الزركلي، *الأعلام*، 5/ 74؛ عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، 2/ 305؛ أحمد أمين، *ضحى الإسلام*، 1/ 387؛

Ramazan Şeşen, "Câhiz", *DİA*, VII, 20; *GAL*, I, 159.

[23] تم الاعتماد فيما يتعلق بسرد تصانيفه الموسوعة الإسلامية لمؤسسة الشؤون الدينية التركية كما ورد هناك.

Ramazan Şeşen, "Câhiz", *DİA*, VII, 21-23.

أ- في مجال اللغة والأدب:

1- البيان والتبيين.

2- كتاب آي القرآن.

3- رسالة في البلاغة والإعجاز.

ب- في مجال تاريخ المذاهب وعلم الكلام:

1- العثمانية.

2- كتاب في العباسية.

3- تصويب علي في تحكيم الحكمين.

4- فضيلة المعتزلة.

5- كتاب الرد على أصحاب الإلهام.

6- كتاب خلق القرآن.

7- تفضيل صناعة الكلام.

8- حجج النبوة.

9- الرد على النصارى واليهود.

ج- في مجال التاريخ والسياسة:

1- رسالة في بني أمية.

2- كتاب جمهرة الملوك.

3- كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية.

د- في مجال الأخلاق:

1- التاج في أخلاق الملوك.

2- كتاب المحاسن والأضداد.

3- رسالة في النبل والتنبل وذم الكبر.

4- رسالة في الفصل ما بين العداوة والحسد.

هـ- في مجال الفن والتجارة:

1- كتاب التبصر بالتجارة.

2- رسالة في صناعة القواد.

3- رسالة في مدح التجار وذم عمل السلطان.

4- كتاب المعلمين.

5- كتاب غش الصناعات.

6- رسالة في طبقات المغنين.

7- كتاب القيان.

و- في المجالات المختلفة:

1- كتاب الحيوان.

2- كتاب البخلاء.

3- كتاب التربيع والتدوير.

4- فضائل الأتراك.

5- فخر السودان على البيضان.

6- كتاب الرجل والمرأة.

7- مفاخرة الجواري والغلمان.

8- البرصان والعرجان.

9- كتاب العرب والموالي.

10- كتاب الأسماء والكنى والألقاب.

11- كتاب الزرع والنحل والزيتون والعنب.

12- كتاب القول في البغال.

13- كتاب البلدان (كتاب الأمصار وعجائب البلدان).

3- مظاهر الرواية الأدبية في بلاد الشام:

أ- الوصايا الأدبية:

لما كان للشعر والأدب شأن كبير عند الخلفاء والأمراء من بني أمية، فقد اهتموا بتأديب أولادهم، وكانوا لذلك يستقدمون المؤدبين ويوصونهم بتعليمهم الشعرَ إلى جانب تعليمهم القرآن وما يتصل به من أمور الدين. ولعل الجمع بين هذه الأمور يدل على الأهداف التربوية التي كان يستشرف الخلفاء والأمراء آفاقَها، كما يدل ذلك على أنهم كانوا يرون أن مصدر الثقافة له منبعان رئيسان: منبع ديني إسلامي، وآخر عربي ديني.

نرى ذلك في قول عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدِّبَ ولده حيث يقول[24]: "ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بَنِّي إصلاحُك نفسَك؛ فإنَّ أعينهم معقودة بعينك، فالحسَنُ عندهم ما استحسنتَ، والقبيح عندهم ما استقبحتَ. علِّمهمْ كتاب الله، ولا تكرههم منه فيهجروه، ثم رَوِّهمْ من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحْكِموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مَضَلةٌ للفهم. وعلمهم سيرَ الحكماء وأخلاق الأدباء، وجَنِّبْهمْ محادثةَ النساء، وتَهَدَّدْهمْ بي وأَدِّبْهمْ دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، ولا تَتَّكِلْ على عذري، فإني قد اتكلتُ على كفايتك، وزِدْ في تأديبهم أَزِدْكَ في بِرِّي إن شاء الله".

يشير ما ذكرناه آنفا إلى حرص الخلفاء والأمراء من بني أمية على تربية أبنائهم تربية عربية إسلامية، وتقويم ألسنتهم بالقرآن والشعر.

ب- إنشاد الشعر واستنشاده:

كان إنشاد الشعر واستنشاده مظهرا آخر من مظاهر الرواية الأدبية ومن مظاهر الاهتمام بالشعر والشعراء، ولعل أكثر الخلفاء اهتماما بذلك عبد الملك بن مروان. فقد كان يجتمع في بلاطه قوم من الشعراء يتذاكرون الأشعار ويتحاورون في معانيها، وكان الخلفاء يشجعون على الإنشاد والاستنشاد بالشعر. وقد كانت المكافأة ما يقدمها معظم الخلفاء والأمراء من بني أمية، يدل على ذلك ما أورده الجاحظ بقوله[25]: "قال إبراهيم: قال أبو نصر: فبكر عليه من الغد وقد تزَيَّا بِزَيِّ الأعراب، فأنشده ثم دنا فقبَّل يده، ثم قال: يا أمير المؤمنين، قد والله أنشدتُ مروانَ ورأيتُ وجههُ وقبلتُ يده وأخذتُ جائزته، وأنشدتُ يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ورأيت وجههما وقبلتُ أيديهما وأخذتُ جوائزها".

وكان لتلك المكافآت أثر كبير في حض نظم الشعر واستقطاب الشعراء.

[24] الجاحظ، أو عثمان عمرو بن بحر، *البيان والتبيين*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة السابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، 2/ 73-74.

[25] الجاحظ، *البيان والتبيين*، 1/ 95.

فيقول الوصافي[26]: دخل الهيثم بن الأسود بن العريان، وكان خطيبا شاعرا، على عبد الملك بن مروان فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أجدني قد ابيض مني ما كنت أحب أن يسود، واسود مني ما كنت أحب أن يبيض، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين، ولانَ مني ما كنت أحب أن يشتد. ثم أنشد:

اِسْمَعْ أُنَبِّيكَ بِآياتِ الْكِبَرْ نَوْمُ الْعِشاءِ وَسُعالٌ بِالسَّحَرْ

وَقِلَّةُ النَّوْمِ إِذَا اللَّيْلُ اعْتَكَرْ وَقِلَّةُ الطُّعْمِ إِذَا الزَّادُ حَضَرْ

وَسُرْعَةُ الطَّرْفِ وَتَحْمِيجُ النَّظَرْ وَتَرْكي الحسناءَ في قُبْل الطُّهُرْ

وحذرًا أَزْدادُهُ إلى حَذَرْ والناسُ يَبْلَوْنَ كما يَبْلَى الشَّجَرْ

كان عمر بن عبد العزيز أول من نهى الناس عن حمل الصبيان على ظهور الخيل يوم الحلبة، وقال[27]: "تحملون الصبيان على الجنان؟". وأنشد في تشبيه الإنس بالجن لأبي الجويرية العبدي:

إنسٌ إذا أمنوا جنٌّ إذا فزعوا مُرَزَّؤونَ بها ليلٌ إذا حشدوا

وأنشدوا:

وقلتُ والله لَنرحَلَنّا قَلائصاً تحسبهنَّ جِنّا

ويتبدى لنا فيما عرضنا في هذا الفصل أن الخلفاء والأمراء شملوا الشعراء بعنايتهم، وكان لهم أثرهم الكبير في تشجيع نظم الشعر وروايته له كما أسلفنا.

ج- التمثيل بالشعر:

التمثيل بالشعر يعتبر من أبرز مظاهر الرواية الأدبية؛ إن الأبيات التي تسير على ألسنة الناس كانت تقوم مقام المثل.

[26] *المصدر نفسه*، 1/ 399.

[27] الجاحظ، أو عثمان عمرو بن بحر، *كتاب الحيوان*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1968، 6/ 179-180.

وقد كان معظم موضوعات الشعر الذي يتمثل به من شعر الحكمة والأمثال. وذلك ينحصر بخصوصية الزمان والمكان. وقد كان كثير من الخلفاء والأمراء يتمثلون بالشعر في مواقف مختلفة:

فقد كان معاوية يتمثل به، من ذلك قوله[28]: ودخل الأحنف بن قيس على معاوية بن سفيان، فأشار له إلى الوساد فقال له: اجلس. فجلس على الأرض، فقال له معاوية: وما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن فيما أوصى به قيس بن عاصم المنقريّ ولده أن قال: "لا تغش السلطان حتى يملك، ولا تقطعه حتى ينساك، ولا تجلس له على فراش ولا وساد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين؛ فإنه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتُقامَ له، فيكون قيامك زيادة له، ونقصانا عليك". حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين، لعله أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس مني؛ فقال معاوية: "لقد أوتيت تميم الحكمة، مع رقة حواشي الكلم". وأنشأ يقول[29]:

يا أَيُّهَا السّائِلُ عَمّاَ مَضَى وَعِلْمِ هذَا الزَّمَنِ العائِبِ
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي العِلْمَ أو أَهْلَهُ أو شاَهِدًا يُخْبِرُ عَنْ غائِبِ
فَاعْتَبِرِ الأَرْضَ بِسُكّانِها وَاعْتَبِرِ الصّاحِبَ بالصّاحِبِ

كذلك يتمثل بالشعر في موضع آخر؛ من ذلك قوله: وتمثل معاوية في عبد الله بن بديل[30]:

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّها وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ ساَقِهاَ الحَرْبُ شَمَّرَا[31]
وَيَدْنُو إذا ما المَوْتُ لم يَكُ دُونَهُ قِدَى الشِّبْرِ يَحْمِي الأَنْفَ أَنْ يَتَأَخَّرَا[32]

ورأى معاوية هزاله وهو متعرّ، فقال[33]:

أَرَى اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ في نَقْضِي أَخَذْنَ بَعْضِي وَتَرَكْنَ بَعْضِي
حَنَيْنَ طُولِي وتَرَكْنَ عَرْضِي أَقْعَدْنَنِي مِنْ بَعْدِ طُولِ النَّهْضِ

وكان عبد الملك تمثل حين وثب بعمرو بن سعيد الأشدق[34]:

[28] الجاحظ، *البيان والتبيين*، 1/ 53–54.

[29] هذه الأبيات للأُقَيْشِر الأسدي موجودة في ديوانه. الأقيشر الأسدي، *ديوان الأقيشر الأسدي*، صنعة: محمد علي دقة، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، 1997، ص. 50.

[30] الجاحظ، *البيان والتبيين*، 1/ 53–54.

[31] هذان البيتان لحاتم الطائي موجودان في ديوانه. حاتم الطائي، *ديوان حاتم الطائي*، دار صادر، بيروت، 1981، ص. 49.

[32] ينسب هذا البيت إلى هدبة بن الخشرم. انظر *البيان والتبيين*، ص. 4/ 60.

[33] الجاحظ، *البيان والتبيين*، 4/ 60.

سَكَّنْتُهُ لِيَقِلَّ مني نَفْرُهُ فأصولُ صَوْلَةَ حازمٍ مُسْتَمْكِنِ
غضَباً ومحميةً لِنفسي إنه ليس المسيء سبيلُهُ كالمحسنِ

تمثل أيضا عبد الملك بن مروان[34]:

وكلُّ جديدٍ يا أميمَ إلى بِلىً وكلُّ امرىء يوما يصير إلى كانْ

وقال آخر:

فاعمَلْ على مَهَلٍ فإنَّكَ مَيِّتٌ واكْدَحْ لنفسكَ أيها الإنسانْ
فكأنَّ قد كان لم يكُ إذ مضى وكأنَّ ما هو كائنٌ قد كانْ

مما سبق يتبين لنا الاهتمام بالشعر وتمثله في مواقف مختلفة.

د- الروايات الموجودة التي تتعلق باهتمام الخلفاء والأمراء من بني أمية بالشعر ومعرفتهم له في كتب الجاحظ:

كان الخلفاء والأمراء من بني أمية يهتمون بالشعر وبسلامة الكلام اهتماما خاصا، وقد يعود ذلك للنشأة العربية الأصيلة التي نشأها بنو أمية، وكانو يهتمون أيضا بتربية أبنائهم.

كان معظم الخلفاء والأمراء من بني أمية شعراء، ينظمون الشعر. من ذلك قول يزيد بن معاوية[35]:

فمن مبلِغُ القردِ الذي سبقتْ به جِيادُ أميرِ المؤمنين أنانُ
تعلق أبا قيس بها إن أطعتَني فليس عليها إن هلكتَ ضمانُ

كما يقول الجاحظ:"ولا بد من أن نذكر فيه بعض كلام معاوية، ويزيد، وعبد الملك، وابن الزبير، وسليمان، وعمر بن عبد العزيز، والوليد بن يزيد؛ لأن الباقين من ملوكهم لم يذكر لهم من الكلام الذي يلحق بالخطب، وبصناعة المنطق إلا اليسير".

وقائلا في موضع آخر[36]: "كان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا وفصيحا جامعا، وجيد الرأي كثير الأدب، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء".

[34] *المصدر نفسه*، 4/ 60.
[35] *المصدر نفسه*، 3/ 176.
[36] الجاحظ، *كتاب الحيوان*، 4/ 66؛ *والبيان والتبيين*، 1/ 53-54.

وكان عبد الملك فصيحا ينكر اللحن في الكلام، وكان يقول[38]: "اللحن هُجْنَةٌ على الشريف والعُجْبُ آفة الرأي. وكان يقال: اللحن في المنطق أقبح من آثار الجُدري في الوجه".

وسلك مسلمة على مسلك أبيه، فينكر اللحن ويقول[39]: "إني لا أحب أن أسأل هذا الشيخ –يعني عمرو بن مسلم – فما يمنعني منه إلا لحنه".

فضلا عن اهتمام الخلفاء والأمراء بسلامة الكلام، فقد أولى البعض اهتمامهم بالبلاغة، ولعل في سؤال معاوية عن البلاغة ما يدل على عنايتهم بها.

قال معاوية لصحار بن عياش العبدي[40]: "ما هذه البلاغة فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. فقال له رجل من عرض القوم: يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبسر والرطب، أبصر منهم بالخطب. فقال له صحار: أجل والله، إنا لنعلم إن الريح لتُلقحه، وإن البرد لَيعقده، وإن القمر لَيصبغه، وإن الحرَّ لَيُنضجه. وقال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تُجيب فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ. فقال له معاوية: أو كذالك تقول يا صحار؟ قال صحار: أَقِلني يا أمير المؤمنين، ألاَّ تبطئَ وتخطئَ.

وذلك مما يدل على معرفة معاوية بالشعر، أراد معاوية سحبان وائل على الكلام، وكان اقتضبه اقتضابا فلم ينطق حتى أتوه بمحضرة، فرطلها بيده فلم تعجبه حتى أتوه بمحضرة من بيته[41].

ونرى في رواية أخرى تدل على اهتمام عبد الملك بن مروان بالشعر والشعراء. يقول عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث[42]: "قدم عبد الملك، وكان يحب الشعر، فبعثتُ إلى الرواة، فما أتتْ عليّ سنة حتى رويتُ الشاهد وفضولا بعد ذلك".

ومما سبق يتبين لنا مدى عناية الخلفاء والأمراء من بني أميةبوجه خاص، وأهل الشام بوجه عام بالشعر وسلامة الكلام ومعرفتهم له.

[37] الجاحظ، *البيان والتبيين*، 1/ 328.

[38] *المصدر نفسه*، 2/ 216.

[39] *المصدر نفسه*، 2/ 219.

[40] *المصدر نفسه*، 1/ 53–54.

[41] *المصدر نفسه*، 3/ 120.

[42] الجاحظ، *كتاب الحيوان*، 5/ 194.

الخاتمة

تبدى لنا في نهاية المطاف حول موضوع الرواية الأدبية في بلاد الشام من خلال كتب الجاحظ "البيان والتبيين" و"الحيوان" تمحورت حول أربعة مظاهر وهي: الوصايا الأدبية، وإنشاد الشعر واستنشاده، والتمثيل بالشعر، والروايات الموجودة التي تتعلق باهتمام الخلفاء والأمراء من بني أمية بالشعر ومعرفتهم له.

في هذا البحث وصلنا إلى نتيجة مفادها بأن الخلفاء والأمراء من بني أمية ومن أهل الشام قد أولوا جل اهتماماتهم بجمع الروايات الأدبية، كما أنهم أولوا عنايتهم بتفسير الشعر ونقده. وذلك من خلال الوصايا الأدبية، وإنشاد الشعر واستنشاده، والتمثيل بالشعر، واهتمام الخلفاء والأمراء بالشعر ومعرفتهم له. ومن الجدير بالذكر من خلال استقرائنا كتب الجاحظ المتعلقة بالرواية الأدبية في بلاد الشام أن الخلفاء والأمراء كانوا شعراء وينظمون الشعر. بالإضافة إلى أنهم كانوا يهتمون بالشعر وسلامة الكلام اهتماما خاصا، قد يكون سبب ذلك نشأتهم العربية الأصيلة واهتمامهم بتربية أبنائهم.

ثبت المصادر والمراجع

* أحمد أمين، ***ضحى الإسلام***، الطبعة العاشرة، دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.

* الأقيشر الأسدي، ***ديوان الأقيشر الأسدي***، صنعة: محمد علي دقة، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، 1997.

* الجاحظ، أو عثمان عمرو بن بحر، ***البيان والتبيين***، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة السابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998.

* الجاحظ، أو عثمان عمرو بن بحر، ***كتاب الحيوان***، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1968.

* جرجي زيدان، *تاريخ آداب اللغة العربية*، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1983.

* حاتم الطائي، *ديوان حاتم الطائي*، دار صادر، بيروت، 1981.

* حنا الفاخوري، *الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب القديم*، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، 1986.

* ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

* خير الدين الزركلي، *الأعلام قاموس تراجم*، الطبعة التاسعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1990.

* ابن دريد، أبو بكر بن محمد الحسن، *جمهرة اللغة*، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1987.

* الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، *سير أعلام النبلاء*، ترتيب واعتناء: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004.

* السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، بلا تاريخ.

* شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني*، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، بلا تاريخ.

* طه الحاجري، *الجاحظ حياته وآثاره*، دار المعارف، مصر، 1969.

* ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، إشراف: عبد القادر الأرناؤوط، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، دمشق- بيروت، 1988.

* عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت، 2006.

* ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، دار صادر، بيروت، 1977.

* ياقوت الحموي الرومي، *معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب*، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

*C. Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur*, E. J. Brill, Leiden, 1943.

*C. Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur Supplementband*, E.J. Brill, Leiden, 1938.

*Ramazan Şeşen, "Câhiz", *DİA*, İstanbul, 1993, VII, 20